Volume (25), No. (2A) - (June)/(2025)

أثر التصوف في المديح النبوي في العصر المملوكي

أثر التصوف في المديح النبوي في العصر المملوكي

علي الحوامده
جامعة عجلون الوطنية
rashedalhawamdeh502@gmail.com

*(Corresponding author) e-mail: rashedalhawamdeh502@gmail.com

الملخّص

أثر التصوف في المديح النبوي في العصر المملوكي
الملخص
هدفت الدراسة إلى البحث في أثر التصوف في المديح النبوي تحديدًا في القرن السابع الهجري في فترة العصر المملوكي، وتمثل هذه الحقبة الزمنية مصدرًا غنيًا للتصوف الذي انتشر في فترة الحروب الصليبية، وبدأ اتجاه المدائح النبوية في الاتصال بالتصوف، وقد اتخذ الشعر المتأثر بالتصوف بنسق يبني الشخصية المثالية من وجهة نظر الصوفية، ومثلت المدائح النبوية شكلًا فنيًا وأدبيًا ومعرفيًا يغذي هذه الروح التي انتشرت في تلك الفترة. اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وقدمت البحث في مقدمة وثلاثة مباحث درست التصوف من حيث المفهوم والنشأة، وتناولت المدائح النبوية في العصر المملوكي، ودرست أثر التصوف في شعر المدائح النبوية في العصر المملوكي وبينت الدراسة أن العصر المملوكي عصر ازدهار المدائح النبوية، وأن المؤثرات الصوفية التي أثرت فيه كان له دور كبير في إثراء التجربة الشعرية حيث تمحورت حول ركيزة دينية أساسية.
الكلمات المفتاحية: التصوف، المدائح النبوية، العصر المملوكي.

ABSTRACT

Abstract: The purpose of the study is to investigate the impact of Sufism on the praise of the Prophet, specifically in the seventh century during the Mamluk era. This period of time represents a rich source of Sufism that spread during the Crusades, and the trend of praise of the Prophet began to connect with Sufism. Poetry influenced by Sufism took on a style that builds the ideal character from the Sufi point of view, and praise of the Prophet represented an artistic, literary and cognitive form that nourished this spirit that spread during that period. The study adopted the descriptive analytical approach, and presented the research in an introduction and three chapters that studied Sufism in terms of concept and origin, and dealt with praise of the Prophet in the Mamluk era, and studied the impact of Sufism on the poetry of praise of the Prophet in the Mamluk era. The study showed that the Mamluk era was an era of prosperity of praise of the Prophet, and that the Sufi influences that affected it had a major role in enriching the poetic experience as it revolved around a basic religious pillar.
Key Words: Sufism, Praise of prophet, Mamluk Era.

Article history:

Submission Date: 14/11/2024

Reviewing Date: 12/01/2025

Revision Date: 25/05/2025

Acceptance Date: 22/04/2025

Publishing Date: 01/06/2025

DOI:

Keywords:

Sufism, Praise of prophet, Mamluk Era

Funding:

This research received no specific grant from any funding agency in the public, commercial, or not-for-profit sectors.

Competing interest:

No competing interests exist.

Cite as:

الحوامده، ع. (2025). أثر التصوف في المديح النبوي في العصر المملوكي. Jerash for Research and Studies 25 (2A).

© The authors (2025). This is an Open Access article distributed under the terms of the Creative Commons Attribution (CC BY NC), which permits non-commercial re-use, distribution, and reproduction in any medium, provided the original work is properly cited. For commercial re-use, please contact admin@jpu.edu.jo.

أثر التصوف في المديح النبوي في العصر المملوكي

الملخص

د. علي عبد الكريم خليف الحوامدة

Aliabdalhawamdeh@yahoo.com

Dr. Ali Abdelkareem Khlaif Alhawamdeh

هدفت الدراسة إلى البحث في أثر التصوف في المديح النبوي تحديـدًا في القـرن السابع الهجري في فترة العصر المملوكي، وتمثل هذه الحقبة الزمنية مصدرًا غنيًا للتصوف الذي انتشر في فترة الحروب الصليبية، وبـدأ اتجـاه المـدائح النبويـة في الاتصـال بالتصـوف، وقـد اتخـذ الشـعر المتـأثر بالتصـوف بنسـق يبـني الشخصـية المثالية من وجهة نظر الصوفية، ومثلت المدائح النبوية شكلًا فنيًـا وأدبيًـا ومعرفيًـا يغذي هذه الروح التي انتشرت في تلك الفترة. اعتمدت الدراسة المنهج الوصـفي التحليلي، وقـدمت البحث في مقدمـة وثلاثـة مبـاحث درسـت التصـوف من حيث المفهوم والنشأة، وتنـاولت المـدائح النبويـة في العصـر المملـوكي، ودرسـت أثـر التصوف في شعر المدائح النبوية في العصر المملوكي وبينت الدراسة أن العصـر المملوكي عصر ازدهار المدائح النبويـة، وأن المـؤثرات الصـوفية الـتي أثـرت فيـه كان لـه دور كبـير في إثـراء التجربـة الشـعرية حيث تمحـورت حـول ركـيزة دينيـة أساسية.

الكلمات المفتاحية: التصوف. المدائح النبوية. العصر المملوكي.

Abstract: The purpose of the study is to investigate the impact of Sufism on the praise of the Prophet, specifically in the seventh century during the Mamluk era. This period of time represents a rich source of Sufism that spread during the Crusades, and the trend of praise of the Prophet began to connect with Sufism. Poetry influenced by Sufism took on a style that builds the ideal character from the Sufi point of view, and praise of the Prophet represented an artistic, literary and cognitive form that nourished this spirit that spread during that period. The study adopted the descriptive analytical approach, and presented the research in an introduction and three chapters that studied Sufism in terms of concept and origin, and dealt with praise of the Prophet in the Mamluk era, and studied the impact of Sufism on the poetry of praise of the Prophet in the Mamluk era. The study showed that the Mamluk era was an era of prosperity of praise of the Prophet, and that the Sufi influences that affected it had a major role in enriching the poetic experience as it revolved around a basic religious pillar.

Key Words: Sufism. Praise of prophet. Mamluk Era.

مقدمة

الحمدُ لله الذي أنشأَ الكونَ الفسيح تنفيذاً لإرادتهِ، وقرن سعادة الأنـام بعبادته، والفوز بنعيم جنان الخلد، بامتثال أوامره، وطاعتهِ، والصلاةُ والسَّـلامُ على خير العرب والعجم سيدنا محمد النبيَّ الأمين، المرسـل بلسـان عـربي مُبين، وعلى آله أولي النهى، ومصابيح الدجى، وصحبه الأخيار أعلام التقى... وبعد

مثل الرسول (صلى الله عليه وسـلم) أبـرز شخصـية عُـرفت في تـاريخ البشرية؛ لما حباه الله من خصال وشمائل ومناقب كثـيرة، فضـلًا عن تأييـده له ورعايته في كل محطات حياته، منذ ولادته إلى أن توفاه الله – عز وجل-، هذه الشخصية الفريدة ملأت الدنيا وشغلت النـاس كمـا لم تملأهـا شخصـية أخرى وشغلت الناس كما لم تشـغلهم أي شخصـية أخـرى، ولأن الشـعر هـو لسان حال العرب على مر العصور السالفة فلم يكن مستغربًا أن يجري ذكر شخصية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على هذا اللسان، فنهض الشعر بذكر وتخليد مآثره وسيرته العطرة.

ويعد العصـر المملـوكي عصـر المـدائح النبويـة كمًـا وكيفًـا؛ إذ كـثر فيـه المديح النبوي كثرة لم يشهدها عصر من العصور السابقة وتسـابق كثـير من الشعراء للنظم فيه، وظهرت الدواوين الخاصـة بمـدح الرسـول (صـلى اللـه عليه وسلم) مثل: ديوان أهنى المنائح في أسـنى المـدائح للشـهاب الحلـبي، والمطالع الشمسية في المدائح النبوية وغيرهما، وصاحب هذه الكثرة تطوير في بناء قصيدة المديح النبوي الفني، وكذلك مضمونها[1].

وكثرة المدائح النبوية التي ظهرت في العصـر المملـوكي سـاهمت فيـه مجموعة من العوامل لعلّ من أبرزها الحـروب الصـليبية وانتشـار التصـوف، وقـد أشـار لهـذا السـبب غـير واحـد من الدارسـين الـذين تعرضـوا للمـدائح النبوية. فقد ذكر أحمد بدوي أنه في هذا العصر سادت الحروب باسم الدين، ووقف الشعر يدافع عن صاحب هذا الدين الذي يهاجمه الإفرنج، فظهر عنـد كثير من شعراء هذا العصر ميل إلى مدح الرسول (صلى اللـه عليـه وسـلم) وتمجيـده بقصـائد طويلة[2]. ويقـترب من الـرأي السـابق رأي شـوقي ضـيف

---

[1] لامعي، أحمـد، *المـدائح النبويـة في عصـر المماليـك البحرية*. أطروحـة دكتـوراه غـير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، 2007م، ص577.

[2] بدوي، أحمد، *الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام*، دار نهضـة مصـر للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، د.ت، ص516.

القائل: "ويحتدّ المديح النبوي مع الحروب وحروب التتار؛ إذ أحسّ الشعراء – بحق- أنها حرب موجهة للإسلام ورسوله الكريم، فأخذوا يشيدون به وينوهون بمعجزاته وسيرته الذكية"[1].

ولعل من أكثر العصور التاريخية والأدبية التي كثر ونضج فيها المديح النبوي هو العصر المملوكي (648هـ،923م) كنتيجة لانتشار التصوف وشيوعه، ومن هنا تأتي هذه الدراسة لتناول أثر التصوف في المديح النبوي في العصر المملوكي، حيث ترسخت أركان المديح النبوي، واكتملت قواعده، كما أنّ هذا العصر شهد غزارة لهذا الغرض.

يتناول هذا البحث أثر التصوف في المديح النبوي في العصر المملوكي في القرن السابع الهجري، ويتضمن التعريف بالتصوف ونشاته في العصر المملوكي، والمدائح النبوية، وأثر التصوف في المديح النبوي، فخاتمة، وكذلك يتضمن أهم النتائج والمصادر والمراجع التي تمت العودة إليها في متن البحث.

مشكلة الدراسة وأسئلتها

دارت حول المدائح النبوية دراسات كثيرة، ناقشت المدائح النبوية بشكل عام، وعرجت على الموضوع في العصر المملوكي دون إبراز أثر التصوف في المدائح النبوية، من هنا برزت الحاجة لدراسة أثر التصوف في المدائح النبوية في العصر المملوكي، من خلال الإجاب عن الأسئلة التالية:

- ما مفهوم التصوف وتطوره ونشاته في العصر المملوكي؟
- ما المدائح النبوية وخصائصها في شعر العصر المملوكي؟
- ما أثر التصوف في المدائح النبوية في العصر المملوكي؟

أهمية الدراسة

تبلغ الدراسة أهميتها من سيرة الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ومناقبه التي احتفى بها الشعراء، وكذلك التصوف الذي انتشر في تلك الفترة وبخاصة في ظل الحروب الصليبية، وهذا يحتاج إلى مراجعة وكشف عن أثر التصوف في المدائح النبوية في العصر المملوكي.

منهج الدراسة

[1] ضيف، شوقي، *تاريخ الأدب العربي: عصر الدول والإمارات: الشام*، دار المعارف للطباعة، القاهرة، 1990م، ط2، ص277.

اسـتعانت الدراسـة بـالمنهج الوصـفي التحليلي في تفسـير الظـواهر وتحليلهـا. أمـا مصـادر البحث ومراجعـه، فقـد انقسـمت على القـديم منهـا والمحدث، فشكلت دواوين الشعر العامة والخاصة منبعًا للبحث، يضـاف إلى ذلك بعض الكتب التاريخية والتراجم. وتم تقسيم الدراسة إلى مقدمة، وثلاثة مبـاحث. تنـاول الأول: المفهـوم والنشـأة للتصـوف، ودرس الثـاني: المـدائح النبوية في العصر المملوكي، وأفرد الأخير لدراسـة: أثـر التصـوف في شـعر المدائح النبوية في العصر المملوكي.

المبحث الأول: التصوف (النشأة والمفهوم)

1. نشأة التصوف:

شهد التصـوف الـذي ظهـر في أواخـر القـرن الهجـري الثـاني وأوائـل القرن الثالث حركـة ثريـة ونشـطة، أنتجت كثـيرًا من الآراء والمـذاهب خلال القرنين الثالث والرابع. حيث تطور التصوف ابتداءً من القرن الثالث الهجري إلى " علم شرعي قائم على الجمع بين الفقه والأحـوال الباطنيـة"[1]، واتجـه منـذ النصـف الأول من هـذا القـرن اتجاهًـا تربويًـا ظهـرت من خلالـه طـرق صوفية متعددة حملت أسـماء مؤسسـيها، وعُـدت هـذه الاتجاهـات الصـوفية مرتكزات أساسية للطرق الصوفية التي ظهرت فيما بعد[2].

وكان التصوف يهدف إلى بناء شخصـية خُلقيـة مثاليـة من وجهـة نظـر الصوفية. وقد تعددت المسالك في ذلـك، وبـدت آثـاره واضـحة في الشـعر، حيث كـانوا يرددونــه في خلــواتهم وأدعيتهم ومناجــاتهم الــتي لم تخــل من

---

[1] القويـدري، الأخضـر، *الفكـر الـتربوي الصـوفي: قـراءة في الـتراث الـتربوي عنـد أعلام مشايخ التصوف الإسلامي*، دار نينوى للدراسـات والنشـر، دمشـق، سـوريا، 2010م، ص 13.

[2] المرجع السابق، ص15.

مسحة جمالية ذات قيمة أدبية، وذات تـأثير بليـغ في نفـوس من يسـمعها أو يقرأها[1].

وإن التصوف مدرسة من المدارس الإسـلامية الـتي تحتـاج إلى البحث في المفهوم والمعرفة، لأنها تشـعبت فيهـا الاختلافـات والآراء، وتهـدف هـذه الدراسة إلى معرفة مفهوم التصوف ومواقف الفرق الإسلامية منها، كمـا أن الدراسة تسعى إلى قراءة نماذج من الشعر الصوفي.

وفي دراسة بعنوان (التصوف الإسلامي: المصادر والمـؤثرات)، يـرى الـدارس أن أي ظـاهرة اجتماعيـة لا يتسـنى فهمهـا إلا في ضـوء الظـروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة التي أهلت لنشوء هذه الظاهرة وتطورهـا، ومن ثم كـان اهتمـام العلمـاء العـرب المسـلمين والمستشـرقين بتحديد العوامل التي كانت وراء نشأة التصوف ولكثرة ما شاب التصوف من عناصر غريبة عن الإسلام، منها الهندي والفارسي واليوناني والمسيحي، فقد أدى ذلك إلى اعتقـاد البعض من العـرب والمستشـرقين أن نشـأة التصـوف ومصدره يرجع إلى هذه العناصر الدخيلـة عن الإسـلام وغيرهـا من العوامـل الخارجية بعيدة الصلة عن الإسلام، والحقيقة أن تاريخ التصـوف في الإسـلام جزء لا يتجزأ من تاريخ الإسلام نفسه، ومظهر من مظاهره وما أحاط به من ظروف وما دخـل فيـه من شـعوب، وليس شـيئا اجتلب من الخـارج دون أن يكون له صلة بالدين الإسلامي وروحه وتعاليمه[2].

والتصوف له طريق طويل في الدراسة والبحث، فهو "موضـوع واسـع ومجال رحب لدراسات وبحوث شتى، فمنها دراسات لغوية للشعر الصوفي، ووجدانية للحب الصوفي وتاريخيه لمذاهبه وشخصياته إضافة إلى تناولـه في الدراسات الدينية عمومًا"[3]. والصوفية لها اتجاهات دينية ومعرفية وفلسـفية يصعب أن تنحصر في جزء واحد، لأنها تبحث في الدين وعلاقة الفرد بالتـدين بالتجربة الصوفية الروحية في المقام الأول.

2. مفهوم التصوف:

---

[1] عبد الحكيم، حسان، *التصوف في الشعر العربي: نشـأته وتطـوره حـتى أواخـر القـرن الثالث الهجري*، دار العرب للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2010م، ص233.

[2] ولد البشـير، محمـد، التصـوف الإسـلامي المصـادر والمـؤثرات، *دوريـة كـان التاريخيـة، مؤسسة كان*، الكويت، العدد (33)، 2016م، 84-89.

[3] الصالحي، أنغم، التجربـة الصـوفية: دراسـة في ضـوء العلـوم العصـبية، *مجلـة المجمـع العراقي*، المجلد (4)، العدد (44)، 1997م، ص10.

إن المفهوم مـدخل مهم لمعرفـة معـنى الصـوفية وتحديـد دلالـة هـذه الكلمة، والمفهوم بالنسبة للصوفية يصعب تحديده بدقة لتعـدد المصـطلحات التي تدخل ضمن التصوف. " والتصوف من الموضوعات الـتي تتطلب جهـدًا كبيرًا للفصل بين كل ما فيه من مصطلحات ومفـاهيم باعتبـار حقيقتـه الـتي تقوم على الإيثار والتضحية"[1]. فالتضـحية بمـا في الـدنيا أيثـار لمـا يوعـد بـه الإنسان في الآخرة.

وأما كلمة الصوفية أو التصوف فإن هنالك اختلاف بين الدارسـين على أصل هذه الكلمة. فقد نسب السراج الطويسي الصـوفية إلى لبس الصـوف من الثياب، فعروفا بـذلك؛ لأنّ الصـوفية "نسـبوا إلى لباسـهم وهـو الصـوف ويـذكر أن هـذا اللبـاس هـو لبـاس الأنبيـاء والصـالحين فالاسـم مشـتق من اللباس، الذي يتعلق بالهيئة التي يكون عليها الإنسان، ومـا فيـه من زهـد في متع الدنيا"[2] .

وينسب بعضهم الصوفية والتصـوف إلى الطاقـة النورانيـة في نفـوس الصوفية فيه صفاء السرائر ونقاء الأفعال. وكـذلك من صـفاء القلب للخـالق جل وعلا. والصوفية هو في الصف الأول بين يـدي ربهم سـبحانه وتعـالى. أو ينسبونهم إلى أهل الصفة الذين كانوا في زمن رسول الله (صلى اللـه عليـه وسلم)، وهم جماعة كانوا يحرصون على الذكر والمذاكرة[3] .

ويذكر بعضـهم أن التصـوف كلمـة جامـدة ليس لهـا قيـاس في اللغة[4] يختص بطائفة الصوفية. وهذا بخلاف ما جـاء في دائـرة المعـارف الإسـلامية الـتي جعلت الكلمـة مصـدرًا للفعـل الخماسـي كمـا مـرّ معنـا في السـطور السابقة.

وأمـا ابن الجـوزي فـيرى أن الصـوفية تتصـل بـزمن قـديم يعـود إلى الجاهلية. فينسب الصوفية إلى قوم في الجاهلية يقال لهم صـوفة، انقطعـوا

---

[1] خفـاجي، عبـدالمنعم، *الأدب في الـتراث الصـوفي*، مكتبـة غـريب للطباعـة والنشـر، القاهرة، مصر، 1994م، ص33.

[2] الطويسي، السراج(ت: 378هـ)، *اللمع في تاريخ التصـوف الإسـلامي (تحقيـق: كامـل الهنداوي)*، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2001م، ص 23-24.

[3] الكلاباذي، أبو بكر(ت: 384هـ)، *التعرف لمذهب أهل التصوف (تحقيق: أحمـد شـمس الدين)*، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج3، 1993م، ص9-10.

[4] القشيري، النيسـابوري(ت: 261هـ)، *الرسـالة القشـيرية في علم التصـوف (تحقيـق: معروف زريق وعلي عبد الحميد)*، دار الخبرة للنشـر والتوزيـع، بـيروت، لبنـان، 1993م، ص279.

إلى اللـه عـز وجـل وسـكنوا عنـد الكعبـة، فمن سـار على طـريقهم ينعت بالصوفية، كما أن من دلالته في المعنى لبس الصوف"[1]. إن اللبس الخشن يدل على الابتعاد عن التنعم بملذات الحياة والانقطاع عنها، لـذلك كـان كثـير من المتحدثين عن الصوفية والتصوف يعودون لهذا المعنى.

ويـذهب بعض الدارسـين إلى صـعوبة تحديـد مفهـوم التصـوف تحديـدًا دقيقًا فقد "اختلفوا في فهمهم لمعنى التصـوف حـتى إن الشـيخ منهم يـورد جملة من التعريفات فمنهم من أوصلها لأكثر من عشرين تعريفًـا، ومنهم من جاوز بها الخمسين أو المائة[2].

ومفهوم التصوف ارتبط بكل صوفي بصورة منفصلة عن الآخرين، فقد " ظهر عنـد الصـوفي الواحـد أكـثر من تعريـف، ثم توسـع مفهـوم التصـوف بالتدريج حتى وصل إلى حد المبالغة والإفراط، ثم غذته بمرور الزمـان مـواد ذوقية واتسعت من جراء ذلك ساحة التصوف والتقط الصوفية من المصـادر المختلفة أقوالًا وأضافوها إلى التصوف، فتغير مفهومه تدريجيًا لهذا السـبب، وتبدل تعريفه وتحديده في كل عصر، ووصفه كل شيخ وإمـام من الصـوفية بوصف خاص[3].

لقـد اختلفت الآراء وتعـددت في تعريفـات التصـوف ومرجـع ذلـك أن التصوف حركة روحية تخضع لذات الفرد، فتختلف من فرد لآخر لـذا يصـعب تأطيرها وتقنينهـا، بوضـع تعريـف جـامع مـانع لـه، كعلم من العلـوم الأخـرى، واضحة الأسس والمعايير، وقد جمع نيكلسون مـا يقـرب من ثمـانين تعريفـا كلها في قرنين ونصف القرن (أول تعريف لمعـروف الكـرخي، وآخرهـا لأبى سعيد أبى الخير) ولكن "أيا من هذه التعريفـات منفـردا لا يفي بـالغرض، ولا يعطينا الصورة المتكاملـة عن حقيقـة التصـوف، ولكنهـا في مجموعهـا تـدل عليه، وتشير إلى حقيقته، وتبين غاياته وأهدافه"[4]

---

[1] ابن الجوزي، أبـو الفـرج عبـدالرحمن(ت: 597هــ)، *تلـبيس إبليس*، دار الفكـر العـربي للنشر، بيروت، لبنان، 2001م، ص145.

[2] العشي، علي، التصوف والعرض الصوفي، *مجلـة جـرش للبحـوث والدراسـات، جامعـة جرش*، المجلد (3)، العدد (2)، 2003م، ص46.

[3] العشيي، سعاد، ماهية التصوف: دارسة نقدية تحليلية، *مجلة كلية التربيـة، جامعـة عين شمس*، المجلد (1)، العدد (1)، 2015م، ص22.

[4] شعبان، محمـد، *التصـوف الإسـلامي: مدارسـه، رمـوزه، أدبه*. مؤسسـة الـوراق للنشـر والتوزيع، عمان، الأردن، 2016م، ص7.

والتصوف " ليس من الممكن حده، ووضع تعريف جامع له، لأنه في جوهره إشارات وعطايا وهبات، يعرفها أهلها من بحر العطاء، الذى لا ينتهى مدده[1] "فكل متصوف يرى التصوف من منظوره، وقد مثل الصوفي جلال الدين الرومي ذلك بـ " فيل محجوز في حجرة، أو صندوق خشبي، وفى جدرانه بعض الثقوب الصغيرة، فإذا نظر بعض الناس فى ثقب مواجه لخرطوم الفيل، فإنهم يقولون إن بداخل هذا الصندوق أنبوبة ضخمة غليظة، والبعض الآخر ينظر خلال ثقب في مواجهة جانب الفيل وبطنه، فيذكرون أنهم يرون بالصندوق كرة عظيمة مملؤه، وهكذا فإن كل ناظر خلال ثقب من الثقوب في الصندوق يقرر حقيقة أخرى، غير تلك التي رآها الناظر الآخر"[2]. وهم بذلك يرونه كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، والترفع عن الحياة؛ فأوله علم، وأوسطه عمل، آخره موهبة.

المبحث الثاني: المدائح النبوية في العصر المملوكي

1. تطور المدائح النبوية في العصور المختلفة:

يواكب الأدب ما يمر به الإنسان من تأثيرات مختلفة فالشعر الجاهلي صوّر حياة الجاهليين بحلهم وارتحالهم، وأيامهم وصراعاتهم، وأفكارهم ومعتقداتهم. وكان دخول عرب الجاهلية في الإسلام شاهدًا على تحولات فكرية واجتماعية واقتصادية واكبها الشعر، وتأثر بها، وأدى محورًا هامًا في موضوعات حرصت على تقاليد الشعر الجاهلي. وهكذا الحال في دور الشعر على مر العصور يسارع إلى التعبير عن كل جديد. فالشاعر يعبر عن نفسه ولا ينطق بالشعر إلا عند شعوره بالواقع وما يحيط به بما في ذلك

---

[1] طعيمة، صابر، *التصوف والتفلسف، الوسائل والغايات*، مكتبة مدبولي للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2005م، ص13.

[2] شعبان، محمد، *التصوف الإسلامي: مدارسه، رموزه، أدبه*، مرجع سابق، ص 7-8.

المناسبات والأحداث التي تدفعه إلى أن يبوح بما في داخله شعرًا[1]، مع ما يملك من قدرات فنية وتخيلية ترفع الشعر عن لغة المخاطبة. فالشعر صورة الفن والحياة.

وبدخول الإسلام وانتشاره في الجزيرة العربية، سطع نجم النبوة، فأحب المسلمون رسولهم الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم)، فسمع القاصي والداني بذلك الحب الذي تسابق فيه الصحابة يعبرون عن حبهم لرسول الله الذي امتدحه رب العزة (**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**) [2]، وأكرمه جل وعلا باللطف والرحمة، وأبعد عنه غلظة القلب **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)**[3]. وبدأ مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) مبكرًا حيث كان في مرحلة ما قبل الهجرة النبوية يرتكز على الأحداث الجارية في العصر الجاهلي، ثم تحولت في النهاية إلى امتداح القيم الدينية [4]، بعد أن تشبعت نفوس المسلمين بالإيمان بالله، ومعرفتهم لما يؤديه الرسول (صلى الله عليم وسلم) من خدمة للناس في نشر دين الإسلام وتخليصهم من الوثنية.

ومن أقدم ما مدح به النبي (صلى الله عليه وسلم) قصيدة الأعشى التي يقوم في مطلعها:

أَلَم تَغتَمِض عَيناكَ لَيلَةَ أَرمَدا وَعادَكَ ما عادَ السَليمَ المُسَهَّدا

وَما ذاكَ مِن عِشقِ النِساءِ وَإِنَّما تَناسَيتَ قَبلَ اليَومَ خُلَّةَ مَهدَدا

ولكن هذا ليس من المدائح النبوية [5]؛ فزكي مبارك لا يقرّ بأن هذا المدح داخل في متن المدائح النبوية؛ لأنّ الأعشى لم يقل هذا الشعر وهو صادق النية في مدح الرسول، وإنما كانت محاولة أراد بها التقرب من نبي الإسلام، وآية ذلك أنه انصرف حين صرفته قريش [6].

---

[1] غراب، سعيد، *شعر المناسبات الدينية ونقد الواقع المعاصر*، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م، ط1، ص9.

[2] سورة القلم: آية 4.

[3] سورة آل عمران: آية 159.

[4] عيد، صلاح، *مديح الرسول في فجر الإسلام*، دار المعرفة، القاهرة، 1975م، ص9.

[5] مبارك، زكي، *المدائح النبوية*، دار الحجة البيضاء، القاهرة، د.ت، ص 18-19.

[6] المرجع السابق، ص19.

ويـرى المتتبـع لنشـؤ مـدح الرسـول أنـه اتصـل بعلاقتـه مـع قومـه من المسلمين الذين رأوا فيه صفات القائد، فمدحه الشـعراء المسـلمون الـذين آمنوا به ودافعوا عن دعوتـه وأصـبحوا تحت رايـة الإسـلام كحسـان بن ثـابت وكعب بن مالك تدفعهم المحبة لشخص الرسول والإعجاب بصفاته ودفاعهم عن رسالته ودعوته [1]. ومن غير المسـلمين مـا جـاء على لسـان الأعشـى – كما ذكرت سابقًا-، وامتازت أشعارهم بطابعها التقليدي في الأسلوب الفـني، فاتبعوا أساليبهم الجاهلية إلى أن أخذ التأثير الديني يظهر في النفوس ويؤثر في الأداء الفني.

وبدأ المديح النبوي يزيد ويطـرد من انتقـال الرسـول (صـلى اللـه عليـه وسلم) إلى المدينة المنورة، فقد شـهدت هـذه البقعـة المباركـة ميلاد دولـة، وكانت المدة الزمنية فيها أكثر من مـدة الـدعوة في مكـة المكرمـة. وتغـنى الشعراء بصفات الرسول، وكـان لهم مكانـة هامـة في الـدفاع عن الإسـلام، وإعلاء كلمة الله. وتميز المديح في هذه الفترة بتأثير الدين مـع بقـاء الطـابع التقليدي في الظهور [2]، وبروز شعراء المدينة من الأنصـار ومنهم حسـان بن ثابت وكعب بن مالك وعبداللـه بن رواحـة، ويغلب على شـعر هـذه المرحلـة المباشرة في مواجهتـه الأحـداث المتسـارعة، ولم يكن الشـعراء مشـغولون بالصقل والتجويد في أشعارهم لأنهم كانوا في مواجهات مستمرة ومتواصلة مع الأعداء [3].

وكان لبعض القصـائد إشـكالية في تحديـد نشـأتها بسـبب مجموعـة من العوامـل الزمنيـة بين الجاهليـة والإسـلام والفنيـة بالتزامهـا الطـابع القـديم وموضوعها الإسلامي وقصيدة حسـان بن ثـابت الهمزيـة المشـهورة، والـتي مطلعها [4]:

عَفَت ذاتُ الأَصابِعِ فَالجِواءُ إِلى عَذراءَ مَنزِلُها خَلاءُ
دِيارٌ مِن بَني الحَسحاسِ قَفرٌ تُعَفّيها الرَوامِسُ وَالسَماءُ

---

[1] مخيمر، صالح، *المدائح النبوية بين الصرصـري والبوصـيري*، دار مكتبـة الهلال، بـيروت، ط1، 1986م، ص15.

[2] سالم، محمـود، *المـدائح النبويـة حـتى نهايـة العصـر المملـوكي*، دار الفكـر المعاصـرة، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ص66.

[3] عيد، صلاح، *مديح الرسول في فجر الإسلام*، مرجع سابق، ص13-14.

[4] ابن، ثـابت، حسـان (ت: 674م)، *ديوانه*، دار الكتب العلميـة، بـيروت، لبنـان، ط1، 1994م، ص 17

وَكانَت لا يَزالُ بِها أَنيسٌ خِلالَ مُروجَها نَعَمٌ وَشاءُ
فَدَع هَذا وَلَكِن مَن لَطيفٍ يُؤَرِّقُني إِذا ذَهَبَ العِشاءُ
لِشَعثاءَ الَّتي قَد تَيَّمَتهُ فَلَيسَ لِقَلبِهِ مِنها شِفاءُ
كَأَنَّ خَبيأَةٍ مِن بَيتِ رَأسٍ يَكونُ مِزاجَها عَسَلٌ وَماءُ

إلى أن يقوم في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) من هذه القصيدة الأبيات التالية: [1]

وَقالَ اللَهُ قَد يَسَّرتُ جُنداً هُمُ الأَنصارُ عُرضَتُها اللِقاءُ
شَهِدتُ بِهِ وَقَومي صَدَّقوهُ فَقُلتُم ما نُجيبُ وَما نَشاءُ
وَجِبريلٌ أَمينُ اللَهِ فينا وَروحُ القُدسِ لَيسَ لَهُ كِفاءُ

واختلف الدارسون في الحكم على القصيدة الجاهلية هل أنها إسلامية أم قيلت في زمنين. وكان الاختلاف حول تاريخ القصيدة، وكذلك جملة القضايا التي تناولها الشاعر فيها، وأسلوبه في عرضها، ومن أهم هذه القضايا لوحة الخمر وصورها الفنية الواردة في القصيدة [2]، وموضوعها في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) والدفاع عنه. وعلى العموم فإن هذه القصيدة وغيرها من القصائد مهدت لظهور موجة المدائح النبوية واستمرارها بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم).

وفي العصر الأموي ظهرت هاشميات الكميت، وشعره المسخر لمدح الهاشميين بنسبهم المتصل بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وطوّر الكميت المديح النبوي إذ خاطب العقل مثل العاطفة، ولكنه لم يكن مدحًا مختصًا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) في قصائد خاصة [3] إذ توجه إلى مدح آل البيت بنسبهم إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) [4].

ومع بداية العصر العباسي بدأ ظهور التصوف يتصل بشعر المديح النبوي، ونظمت قصائد موضوعها الرئيس مدح النبي (صلى الله عليه وسلم) [5] وقد ظل التغني بخصال الرسول وفضائله متصلًا بآل البيت في

---

[1] المرجع السابق، ص 18
[2] علاوي، محمود، مدح النبي، *مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية* ، العدد (2) 2006م، ص255.
[3] سالم، محمود، *المديح النبوي حتى نهاية العصر المملوكي*، مرجع سابق، ص84.
[4] ضيف، شوقي، *التطور والتجديد في الشعر الأموي*، دار المعارف، القاهرة، 1991م، ص275.
[5] سالم، محمود، *المديح النبوي حتى نهاية العصر المملوكي*، مرجع سابق، ص105.

أشعار الشيعة منذ عهد بني أمية يشاركهم فيه كثير من الشعراء في العصر العباسي، وأخذ يضطرم في البيئات الإسلامية جميعها، وازداد قوة حين قامت الدولة الفاطمية في مصر، وسنت الدولة الفاطمية الاحتفال بالمواد النبوي، وكانت احتفالاتهم تنتشر فيها المدائح النبوية بكثرة، ولا يزال صداها مدويًا حتى يومنا هذا [1].

2. المدائح النبوية في العصر المملوكي:

وأما في العصر المملوكي فإن المدائح النبوية ازدهرت ازدهارًا يعد علامة فارقة في تاريخ المدائح النبوية. وقد أذكى المدائح النبوية وقوع الحروب الصليبية واتخاذها من الدين سلطة في مواجهة الإسلام، والهجمة الشرسة على المسلمين والطعن في دينهم. وبما أن الحروب باسم الدين سادت حاول الأدب أن يدافع وينافح عن صاحب رسالة الإسلام، وبرز مجموعة من الشعراء في هذا العصر يميلون إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقصائد تهتم بموضوع المديح النبوي الذي يستغرق القصيدة بطولها [2].

وظهرت المدائح النبوية بقوة على الساحة الأدبية في فترة الحروب الصليبية، ونجد في هذه الفترة البوصيري الذي يعتبر أستاذًا وإمامًا في هذا العصر ويلاحظ هنا أن الحروب الصليبية والاضطهاد قادت أصحاب الفكر إلى ترويج السيرة المحمدية ورسالته حيث تمكن المسلمون من العثور على الطمأنينة والعثور على الملجأ فيها ووجدوا فيها القدوة المثلى في مثل هذه الكوارث[3].

وإن دواعي اتساع المديح النبوي ومسوغاته في العصر المملوكي كثيرة ومتنوعة والظروف السياسية والاجتماعية والدينية التي كانت سائدة آنذاك، وكانت كلها تدفع الشعراء إلى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) والإكثار من مدحه. والأدب يعكس الحياة، وشعراء المدح النبوي لم يكونوا في شعرهم بعيدين عن عصرهم ومجتمعهم، وإنما كانوا يجسدون حالًا

---

[1] الحمصي، نعيم، *نحو فهم جديد لأدب الدول المتتابعة وتاريخه*، جامعة تشرين، اللاذقية، سوريا، 1978م، ص219.

[2] بدوي، أحمد، *الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام*، مرجع سابق، ص516-517.

[3] إي، عبد الفواز، نشأة المدائح النبوية وتطورها: دراسة تحليلية، *مجلة كيرالا، الهند*، المجلد (5)،العدد (10)، 2017م، ص20.

موجـودة تشـغل النـاس، وهي الاحتفـال بـالنبي (صـلى اللـه عليـه وسـلم) والإشادة به في ظل ظروف الحرب والقهر، أو تعرض الدين لهجمة شرسة، ونبيهم لافتراءات الغزاة وإفكهم، فكان لابد لهم من الـرد، والانتصـار لـدينهم ونبيهم، واستحضروا السنة النبوية والشـمائل النبويـة وأشـاعوها في حيـاتهم [1].

بـرزت الحـروب الصـليبية بشـكل واضـح على سـاحة الفكـر الـديني فمواجهة الصليبيين لم تكن مواجهة عابرة، بل احتـاجت إلى تمسـك بالـدين، وظهر المديح النبوي في إطـار سـعي المجتمـع لتثـبيت ركـائز التـدين فأخـذ الشعراء يتذكرون مناقب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ودوره في إخـراج البشرية من الظلمات إلى النور، ونتج عن هذه الـدعوات إصـرار المسـلمين على الصبر والثبـات في مواجهـة هجمـات الصـليبيين وعـدوانهم ثم دحـرهم وإيقاع الهزيمة بهم.

ولا تعد الحروب الصليبية الباعث الوحيد للمدائح النبويـة فهنـاك عوامـل أخرى أدت إلى انتشـار المـدائح النبويـة وتطويرهـا. فهي دائمـة الوجـود في المناسبات الدينية والاحتفال بها في رأس السـنة الهجريـة أو المولـد النبـوي الشريف وغيرهما من المناسبات الدينية [2].

ولا يغفل الدارسون الإشارة إلى الأوضـاع الاقتصـادية الصـعبة للمجتمـع وما يتعرض إليه من الظلم والفسـاد من قبـل السـلطة الحاكمـة ومن يقـوم على أمرها. إنّ هذه الأجواء المشحونة دفعت الشعراء نحـو المـدائح النبويـة فهي من الوسـائل الـتي تنجيهم من المصـائب والـويلات والكـروب، وتـدفع عنهم أذى الجائرين وسطوتهم وتخلصهم من نكد الدنيا [3].

وقد شهد العصر المملوكي على امتداده مصاعب لا حصر لها، وأزمـات متلاحقة وعرف فيه الظلم الاجتماعي، وظل الصـراع السياسـي والعسـكري على أشده بسبب الغـدر الأوروبي والغـزو المغـولي، فبقي النـاس في قلـق

---

[1] إبـراهيم، عـزت ورسـولي، علي، تـداعيات المـدائح النبويـة على البيئـة في العصـر المملوكي، *مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل*، العـراق، العـدد (34)، 2017م، ص 31.

[2] جكلي، زينب، *الشعر العـربي في عصـر الـدول المتتابعة*، دار الضـياء، عمـان، الأردن، 2004م، ص40.

[3] رشيد، ناظم، *المدائح النبوية في أدب القرنين السادس والسابع للهجـرة*، دار الشـؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2002م، ص79.

وضيق وترقب، وفي مثل هذه الأحوال تكثر الدعوات للإصلاح والتخفيف عن الناس بطرق شتى، منها الشعر الذي ينتشر بين الناس وينتقد الحكام والذي يظهر مواطن الخطأ في المجتمع[1]. واهتمت المدائح النبوية في العصر المملوكي بالإتيان بما فيه مصلحة الناس بتذكيرهم بسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) العظيمة، وخصالة الحميدة ويدعم ذلك البنية الصوفية التي احتضنت المديح النبوي واتخذت منه شعارًا لها.

وللمديح النبوي في العصر المملوكي تجاذبات في دواعي المديح حيث قدم سلاطين المماليك تشجيعهم للشعراء وترغيبهم به وظهر المداحون المتكسبون، وهناك من كان يمدح الرسول بصدق وعاطفة جياشة ومن كبار المداحين في العصر المملوكي ابن نباتة المصري والبوصيري. وقد شاعت فيه ألوان كالبديعيات والمعارضات، وظهر عصر الغلو إذ أسرف فيه بعض المتصوفة من الشعراء متأثرين بمجموعة من أعلام التصوف[2].

مرّ مدح النبي (صلى الله عليه وسلم) بمراحل عدة، فصفات النبي (صلى الله عليه وسلم) ذكرها المسلمون في المراحل الأولى من الدعوة، ثم ذكرها غير المسلمين ، ومع مرور الزمن وظهور صدر الإسلام بدأ الدفاع عن الإسلام يتضمن الثناء على النبي (صلى الله عليه وسلم) ومجيئه لإنقاذ الناس من الظلمات إلى النور، وتوالت الأجيال اللاحقة من المسلمين في ذكر سيرته العطرة، وتبع ذلك في العصر المملوكي وازدهر (مدح النبي صلى الله عليه وسلم) واستمر حتى كثر عدد شعرائها بين أهل التصوف.

المبحث الثالث: أثر التصوف في شعر المدائح النبوية في العصر المملوكي

---

[1] إبراهيم، عزت ورسولي، علي، *تداعيات المدائح النبوية على البيئة في العصر المملوكي*، مرجع سابق، ص32.

[2] دهداري، فراس، الموازنة بين المديح النبوي في عصر صدر الإسلام والعصر المملوكي، *مجلة الكلية الإسلامية، الجامعة الإسلامية*، العدد (214)، 2019م، ص715.

طبعت الـروح الدينيـة مجمـل النشـاط الأدبي والفكـري في العصـر المملوكي، وقد ظهر ذلك من خلال التصوف وشعر المديح النبوي، وقد شاع ذلك في معظم الأمصار الإسلامية في تلك الحقبة، ولعل النزاعات السياسية والغزو الخارجي كان سببًا حاسمًا نتج عنه هذا الطابع[1]، وقـد تضـمن العديـد من الأغـراض مثـل النصـيحة والتضـحية وطلب الرضـا، والوعـظ والإرشـاد، والاستغاثة بالرسول(صلى الله عليه وسلم)، وبيان الحقيقة المحمدية،

1. إظهـار المحبـة والتضـحية وطلب الرضـا في المـدائح النبوية الصوفية

إن التصوف يعني في حقيقته الإيثار والتضحية، فالصـوفي يضـحي بكـل ملذات الدنيا يطلب الأجر والثواب من الله، وفي سـبيل تحقيـق محبـة اللـه، ويميـل أهـل التصـوف إلى الزهـد في الـدنيا الفانيـة وإيثـار الآخـرة الباقيـة. والتصـوف بعيـدًا عن المغـالاة فيـه تربيـة للنفس، ورياضـة روحيـة تسـمو بصاحبها.

ويحـرص المتصـوف على النصـح والإرشـاد، وقـد جـاءت أشـعار أهـل التصوف للوعـظ والإرشـاد من أجـل حفـظ النفس ومنعهـا من التمـادي في الزلل والخطأ، ويفيض هذا الشـعر عاطفـة جياشـة من المتصـوف، يريـد أن يحمي الآخر من الآفات، ويخاطب نفسـه الصـوفي قبـل أن يقـع في نصـيحة الآخرين، فالخطاب يصلح أن يكون خطابًـا للـذات ينصـح النفس، ويصـلح أن يكون خطابًا للآخر، يقول البوصيري[2]:

إلى مـــــــتى أنتَ باللَّذَّاتِ وَأنتَ عن كـلِّ مـا قَـدَّمْتَ مَشغُولُ
فِي كـلِّ يَـوْمٍ تُـرَجِّي أن تتوب غداً وَعَقـدُ عَزمِـكَ بالتَّسـوِيفِ مَحْلُولُ
أما يُرَى لَـكَ فيمـا سَـرَّ مِنْ عَمَلٍ يَوْمـاً نَشـاطٌ وعَمَّا سـاءَ تَكسِيلُ
فَجَـرِّدِ العَـزْمَ إنَّ المـوتَ مُجَرَّدٌ بِيَدِ الآمالِ مَسْلُولُ

---

[1] فريح، عثمان، *المديح النبوي في العصر المملوكي*، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية. المجلد (1)، العدد (6)، 1993م، ص223.

[2] البوصيري، محمد بن سعيد(ت: 696هـ)، *ديوانه*، تحقيق محمد سيد الكيلاني، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط3، 1973م، المقدمة، ص220.

صارِمُهُ

واقطع حِبالَ الأَمـانِيِّ الَّتي فَإِنَّما حَبلُها بِالزُّورِ مَوصُولُ
اتَّصَلَت

أَنفَقتَ عُمْـرَكَ فِي مـالٍ ومَـا عَلَى غـيرِ إِثْمٍ منـكَ تحصيلُ
تُحَصِّلُهُ

وَرُحتَ تَعمُـرُ داراً لا بَقـاءَ لها وَأَنتَ عَنهـا وَإِن عُمِّرتَ مَنقُولُ

جَاءَ النَّذيرُ فَشَـمِّر لِلمَسِـيرِ بِلا مَهـلٍ فَلَيسَ مـعَ الإِنـذارِ تَمهِيلُ

ويتناول البوصيري موضوعات عدة إلى أن يصل بقصيدته إلى قوله مادحًا رسول الله (صلى الله عليه وسلم):

والمُصطفَى خيرُ خلقِ اللَّهِ لهُ عَلَى الرُّسلِ تَرجِيحٌ وتَفضِيلُ
كُلِّهِم

مُحَمَّدٌ حُجَّةَ اللَّهِ الَّتي ظَهَرَت بِسُنَّةٍ ما لها فِي الخَلقِ تَحوِيلُ
نَجْلُ الأكارِمِ والقَومِ الَّذين لَهم عَلَى جمِيعِ الأَنَامِ الطَّوْلُ والطَّولُ

إنّ الأبيات الأولى من هذه القصيدة فيها رياضة صوفية تقوم على تحذير النفس من الغرق في ملذات الدنيا، وتحث العبد على التوجه إلى الله، والمبادرة إلى التوبة؛ لأن الموت له ساعة آتية ولكنها غير معلومة الميعاد. تدعوه إلى أن يترك التأجيل والتسويف، فهو لا يعلم موعد الرحيل.

فالعلاقة بين الشعر والتصوف متقاربة متلاصقة فهما يصدران عن معالم روحية خفية، إن في خفاء الروح صفات تجمع بين الشعر والتصوف "وهناك وشائج تجمع بين التصوف والفن بشكل عام وبينه وبين الشعر بشكل خاص، هذه الوشائج تتمثل في أن كليهما يحيل إلى العاطفة والوجدان[1]، في العمل الصادر عنه. فالبوصيري في مديحه يضطلع من نفسه مخاطب يحاوره، وينصح، وهو بهذه الطريقة يدرب النفس على المحاسبة والمراجعة لتكون النفس أكثر نقاء، وعلى استعداد دائم للرحيل.

ومن الخصائص الصوفية الإيثار والتضحية، وتظهر هذه الخصيصة بشكل واضح في قول البوصيري في الأبيات السابقة

---

[1] حيدر، علي، أثر سياسة الدولة المملوكية في شيوع التصوف، *مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات، سوريا*، المجلد (12)، العدد (2)، 1990م، ص131.

أَنفَقتَ عُمْــرَكَ فِي مــالٍ ومَــا عَلَى غــيرِ إثْمٍ منــكَ تُحَصِّلُهُ تحصيلُ

وَرُحتَ تَعمُــرُ داراً لا بَقــاءَ وَأَنتَ عَنهـــــا وَإِن عُمِّرتَ لها مَنقُولُ

جَاءَ النَّذيرُ فَشَــمِّر لِلمَسِـيرِ مَهــلٍ فَلَيسَ مــعَ الإِنــذارِ بِلا تَمهِيلُ

وتتضح التضحية في الدنيا الزائلة فيلوم الشعار نفسه على الإهمال عن الآخر بتحصيل المال، ويزهد فيه على الرغم من أنـه على غـير إثم، ويعـاقب النفس على تنكبهـا الطريــق بـالبحث عن عمـارة الـدنيا وهي دار الفنـاء. فالشاعر يشير إلى أن العمل يجب أن يكون لعمارة دار البقاء.

والمدائح النبوية لم يقف أثر التصوف فيهـا عنـد الوعـظ والنصـح الـذي ظهر فيها بقوة وإنما أثر التصوف بالمـديح النبـوي، فأدخـل المتصـوفة طلب المحبة والرضا بما يكون في القضاء والقدر، ويقول الحافظ المحدث شمس الدين أبو المعالي ابن القماح المتوفي سنة 741هـ:

اصــبر على حلــو القضــاء وأعلم بأن الله بالغ أمره ومره

وأثبت فكم أمـــر أمضـــك ليلاً فبشرك الصباح يسره عسره

واضرع إلى الله الكريم ولا بشرًا فليس سـواه كاشـف تسل ضره

وهو يدعو إلى الرضا بكل ما يأتي به القضاء من حلـو مـر، فتلـك إرادة الله، ولا راد لأمره، وينصـح بالثبـات حـتى تتشـف ظلمـة الغمـة وتسـفر عن بشرى مضيئة ضوء الصـباح، وأن يلجـأ الإنسـان إلى ربـه ويضـرع إليـه، فهـو وحده كاشف الغم ومفرج المحن[1].

إنّ أبيات الحافظ المحدث والبوصيري فيها عتاب للنفس على الإسراف في الملذات، وإنكار لغضب النفس أو ما فيها من علة الرضا بما بقدره الله، فهذه الحياة فانية زائلة، وإنما هي طريق يقود الإنسان نحـو الآخـرة الباقيـة. فالمعاني الدينيـة ضـمن المـدائح النبويـة تتصـل بحقيقـة الـدوافع الإصـلاحية

---

[1] ضيف، شوقي، *عصر الدول والإمارات: مصر*، مرجع سابق، ص346.

لشعر المدائح النبوية لمواجهة الانحدار الذي أصاب الحياة في العصر المملوكي والذي ولد لدى بعضهم شعورًا بالضياع[1]. فحاول المصلحون أن يذكروا الناس بماضيهم، وصفات نبيهم مع وعظهم وإرشادهم.

2. توظيف المدائح النبوية في الاستغاثة والتوسل بالرسول (صلى الله عليه وسلم):

يستغل أهل التصوف المدائح النبوية للاستغاثة والتوسل بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد شاع في العصر المملوكي التوسل بالرسول (صلى الله عليه وسلم) والاستنجاد به من الكروب التي عمّت الناس، وشاعت رؤيا النبي الكريم في المنام، وانشغل الفقهاء بهذه الرؤيا، وخاصة في أخذ الرائي بما يؤمر به في المنام، وكان الناس يتجهون إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالتوسل عند كل ملمّة تكربهم والمدائح النبوية حافلة بمثل هذا التوسل، وهذا يعني تأثر الناس بالمدائح النبوية[2]. وأهل التصوف يشيع عندهم التوسل والتشفع برسول الله (صلى الله عليه وسلم).

والحديث في حكم الشفاعة والتوسل لا تبحث فيه هذه الدراسة من الناحية الفقهية، وإنما تذكره من باب أثر التصوف في شعر المدائح النبوية في العصر المملوكي، ويذكر ابن عربشاه في أهمية المدح النبوي الذي أصبح وسيلة من وسائل التشفع والاستغاثة والرجاء برسول الله[3]:

وقد شكوت إلى طبيب علتي — مما اقترفت من الذنوب الجانية

وصف الطبيب شراب مدح المصطفى — فهو الشفا فاشرب هنيئًا وعافية

ومن هذه الاستغاثات قول محمد بن أبي الحسن البكري:

يا أكرم الخلق على ربه — وخير من فيهم به يسألُ

قد مسنا الكرب وكم مرة — فرّجت كربا بعضه يذهلُ

---

[1] حيدر، علي، *أثر سياسة الدولة المملوكية في شيوع التصوف*، مرجع سابق، ص132.

[2] إبراهيم، عزت ورسولي، علي، *تداعيات المدائح النبوية على البيئة في العصر المملوكي*، مرجع سابق، ص33

[3] ابن عربشاه، شهاب الدين(ت: 854هـ)، *ديوانه*، دار المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، 1976م، ص97.

ويضيف في استغاثاته بالرسول إلى تفريج الكروب عنه وإقالته من عثراته الشفاعة له من ذنبه يوم المحشر بما أوتي من محبة الله[4]. ويشبهه بأنه باب يلج منه العبد ، فهو يعبر عن قرب الرسول (صلى الله عليه وسلم) من ربه ومكانته الكريمة ومنزلته العظيمة.

إنّ هذا الشعر بما فيه من استغاثة بالرسول (صلى الله عليه وسلم) كثر عند بعض أهل التصوف، ويمكن أن نفهم من طبيعة العصر المملوكي وما فيه من تضييق على أهل الأمصار والانشغال بالحروب والتكالب على السلطة جعل الناس ينصرفون عن الدنيا وينشغلون بكل ما يذكرهم بدينهم فتوجه بعض الشعراء مستذكرين شفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويذكرون شفاعته للناس، ومن فرط حبهم له صاروا يتوسلون به في أشعارهم.

3. الحقيقة المحمدية في الشعر الصوفي في العصر المملوكي:

من القصائد التي أدخلها أهل التصوف في شعر المدائح النبوية ما يعرف بالحقيقة المحمدية، ويقول ابن عربي " والحقيقة المحمدية الأولية، الكلية، العلية، النورانية، التي هي أول موجود جد عن الذات العلية، وتعرف أيضًا بالنور المحمدي، حقيقة محمد الدرة البيضاء، والإنسان الكامل، وهي جزء من نظريته الشاملة(الكلمة) فهو يرى الموجودات كلها كلمات الله التي لا تنفذ فإنها عن كن، وترمز كلمة كن القولية غلى العقل الإلهي، أما كلمة التكوين فهي الحقيقة المحمدية"[1].

وصور البوصيري " أزلية النور المحمدي المعنوي لب الوجود وروحه وكأن للرسول وجودين هذا الوجود المعنوي الذي يستمد منه الكون وجوده والذي تعاقب الأنبياء منذ آدم، ووجود ثان حسي مادي هو وجوده حين ولد ثم بعث بشيرًا ونذيرًا، وبذلك اتحد المعنى والصورة أو قل الحقيقة المحمدية الأزلية وصورة الإنسان"[2]، وفي ذلك يقول[3]:

مُحَمَّدٌ حُجَّةَ اللَّهِ الّتي ظَهَرَت ... بِسُنَّةٍ ما لها فِي الخَلقِ تَحويلُ
نَجْلُ الأكارِمِ والقَومِ الَّذين لَهم ... عَلَى جمِيعِ الأَنَامِ الطَّوْلُ

4() ضيف شوقي، *عصر الدول والإمارات: مصر*، مرجع سابق، ص367.

1() بولعشار، مرسلي، *الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة –ابن الفارض نموذجًا-*، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران، الجزائر، 2015م، ص62.

2() ضيف، شوقي، *عصر الدول والإمارات: مصر*، مرجع سابق، ص363.

3() البوصيري، محمد بن سعيد، *ديوانه*، مرجع سابق، ص274.

مَنْ كَمَّلَ اللَّهُ مَعناهُ وصورَتَهُ والطُّولُ فَلَم يَفُتهُ عَلَى الحالَيْن تَكْمِيلُ
وخَصَّهُ بِوقَارٍ قَرَّ مِنهُ لَهُ فِي أَنفُسِ الخَلقِ تَعظِيمٌ وتَبجِيلُ
بادِي السكينةِ فِي سُخْطٍ لهُ ورِضاً فلَمْ يَزَلْ وَهْوَ مَرْهُوبٌ ومَأْمُولُ
مِنْ آدَمٍ ولِحِينِ الوَضْعِ جَوْهَرُهُ آل مَكْنُونُ فِي أَنْفَسِ الأَصدافِ مَحمُولُ
فلِلنُّبُوَّةِ إِنْمَامٌ وَمُبْتَدَأٌ بِهِ وَللفَخرِ تَعجِيلٌ وَتأجِيلُ

تظهر هذه الأبيات التوجه الصوفي عند البوصيري في إدراج مفهوم الحقيقة المحمدية في المدائح النبوية، فالرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) حقيقة أزلية من آدم ولحين مولده، وتنقله بين الأكارم من آبائه وأجداده. وعندما نذكر هذه الأمثلة على أثر التصوف في شعر المديح فإن ذلك من قبيل الدراسة الأدبية التي تحدد فيها الأثر ونذكر شواهد وكيف تمثل في الشعر، بعيدًا عن النقد الديني أو الرأي في العقيدة من حيث الصحة والخطأ.

وجاء في شعر المدائح النبوية هجاء اليهود والنصارى ومن ذلك قول البوصيري[1]:

ما بال من غضب الإله عليهم حادوا عن الحق المبين ونكبوا
عبدوا وموسى فيهم العمل الذي ذبحوا به ذبح العجول وعذبوا
وصنوا إلى الأوثان بعد وفاته والرسل من أسف عليهم تندب

إن ذكر اليهود والنصارى في شعر المدائح النبوية يذكر المسلمين بالماضي القديم الذي تجلى فيه اتباع الرسل عن طريق الحق، واتباعهم لطريق الضلال وكل ذلك كان سبيله الضياع والانحراف، والوقوع في المعاصي. وأشد من ذلك ترك العقيدة الصحيحة والفطرة السليمة. فقد عبد اليهود العجل ورسول الله موسى (عليه السلام) بين ظهرانيهم.

ومن ذلك قوله في موضع آخر مذكرًا بيوم القيامة وما سيحل به من ربح وخسران[2]:

حتّى إِذا بَعَثَ اللَّهُ العِبادَ إِلَى يَوْمٍ بِهِ الحكمُ بينَ الخلقِ

---

[1] البوصيري، محمد بن سعيد، *ديوانه*، مرجع سابق، ص93.
[2] المرجع سابق، ص273.

مَفصُولُ

تَبَيَّنَ الرِّبحُ والخُسْرانُ في أُمَمٍ تَخالَفَت بَينَنا مِنها الأَقاوِيلُ

فَأَخْسَرُ النّاسِ مَن كانَت فِي طَيِّها لِنُشُورِ الخَلْقِ

عَقِيدَتُهُ تَعْطِيلُ

وَأُمَّةٌ تَعبُدُ الأَوثَانَ قَدْ لها التَّصاوِيرُ يَوْماً

نُصِبَت والتَّماثِيلُ

وأُمَّةٌ ذَهَبت لِلعِجلِ عابِدَةً فَنالَها مِن عَذابِ اللَّهِ

تَعجِيلُ

يتحدث الشاعر عن الأمم التي حادت عن طريق الصواب ووقعت في الشرك وغرقت في الأهواء. ويذكر أن الفيصل بين الخلق هو يوم القيامة. وبذلك يذكر الشاعر أنباء المسلمين قبل غيرهم بان يوم القيامة بوم حساب وعقاب. يعاقب فيه الإنسان الذي يتخلى عن طريق الحق. ويذكرهم أيضًا بالمعتقد الصحيح الذي جاء به الرسول (محمد صلى الله عليه وسلم) فهو طريق النجاة والربح.

لقد شهدت المدائح النبوية تطورات كبيرة في المضامين في العصر المملوكي بتأثير أهل التصوف وأفكارهم التي ترجموها في أشعارهم، وتأثر بها الناس وشكلت عقيدة عند العامة الذين رددوا هذه الأشعار وحفظوها وعملوا بمقتضاها ولم يكن التأثير الصوفي على مستوى الإبداع الشعري بل حل تأثيره في الفكر في العصر المملوكي.

الخاتمة

قدمت الدراسة تصورًا لأثر التصوف في شعر العصر المملوكي في القرن السابع الهجري، وتجدر الإشارة إلى أن المديح النبوي بدأ في فترة مبكرة من بزوغ فجر الإسلام، بذكر صفات الرسول (صلى الله عليه وسلم) على لسان الشعراء من الصحابة. وامتد المديح النبوي في العصر الأموي مع هاشميات الكُمَيت، ولكنه بقي مديحًا في إطار مدح آل البيت، وامتزج في العصرين العباسي والفاطمي مع مدح الخلفاء. وبذلك يمكن أن نصف المديح النبوي بأنه لم يتبلور فنًت مستقلًا ومذهبًا يقصده الشعراء لغايته.

برزت المدائح النبوية في العصر المملوكي فنًا أدبيًا، وظهر أثر التصوف في المـدائح النبويـة فكـرًا ولغـة، وظهـرت آراء المتصـوفة ومعتقـداتهم في المدائح النبوية مثل الوعظ والإرشاد، والتوسل والاسـتغاثة بالرسـول (صـلى الله عليه وسلم). في ضوء مـا تقـدم، يمكن التوصـل لمجموعـة من النتـائج على النحو التالي:

- بدأ المديح النبوي منذ فجر الإسـلام بـذكر صـفات الرسـول (صـلى الله عليه وسلم) على لسان الشعراء المسلمين وغيرهم.
- امتد المديح النبوي في عصر صدر الإسلام وتبع ذلك أسلوب الدفاع عن الإسلام ومواجهة الأعداء.
- تحول المديح في العصر الأموي مع هاشـميات الكميت، ولكنـه بقي مديحًا لآل البيت. وفي العصر العباسي والفاطمي ظل ممزوجًا مـع مدح الخلفاء.
- يعد العصر المملوكي عصر الازدهار للمدائح النبوية.
- أثر التصوف بالمدائح النبوية فكرًا ولغةً.
- ظهـرت آراء المتصـوفة ومعتقـداتهم في المـدائح النبويـة ومنـه: الوعظ والإرشاد، والتوسل والاستغاثة بالرسول، والإيثـار والتضـحية والزهد في الدنيا، والحقيقة المحمدية عنـد المتصـوفة. وغيرهـا من الأفكار الصوفية التي انتشرت عبر الشـعر بين فئـات المجتمـع في العصر المملوكي.

المراجع

إبـراهيم، عـزت ورسـولي، علي، تـداعيات المـدائح النبويـة على البيئـة في العصر المملوكي، *مجلة كلية التربيـة الأساسـية، جامعـة بابل*، العـراق، العدد (34)، 2017م.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن(ت: 597هـ)، *تلـبيس إبليس*، دار الفكـر العربي للنشر، بيروت، لبنان، 2001م.

ابن عربشاه، شهاب الدين(ت: 854هـ)، *ديوانه*، دار المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، 1976م.

ابن، ثابت، حسان (ت: 674م)، *ديوانه*، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1994م.

إي، عبد الفواز، نشأة المدائح النبوية وتطورها: دراسة تحليلية، *مجلة كيرالا، الهند*، المجلد (5)،العدد (10)، 2017م.

بدوي، أحمد، *الحياة الأدبية في عصر الحـروب الصـليبية بمصـر والشـام*، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، د.ت.

البوصـيري، محمـد بن سـعيد(ت: 696هـــ)، *ديوانه*، تحقيـق محمـد سـيد الكيلاني، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط3، 1973م.

بولعشار، مرسلي، *الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة –ابن الفـارض نموذجًـا-*، أطروحـة دكتـوراه غـير منشـورة، جامعـة وهـران، الجزائر، 2015م.

جكلي، زينب، *الشعر العربي في عصر الدول المتتابعة*، دار الضياء، عمان، الأردن، 2004م،

الحمصي، نعيم، *نحو فهم جديد لأدب الدول المتتابعة وتاريخه*، جامعة تشرين، اللاذقية، سوريا، 1978م.

حيدر، علي، أثر سياسة الدولة المملوكية في شيوع التصوف، *مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات، سوريا*، المجلد (12)، العدد (2)، 1990م.

خفاجي، عبدالمنعم، *الأدب في التراث الصوفي*، مكتبة غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1994م.

دهداري، فراس، الموازنة بين المديح النبوي في عصر صدر الإسلام والعصر المملوكي، *مجلة الكلية الإسلامية، الجامعة الإسلامية*، العدد (214)، 2019م..

رشيد، ناظم، *المدائح النبوية في أدب القرنين السادس والسابع للهجرة*، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2002م.

سالم، محمود، *المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي*، دار الفكر المعاصرة، بيروت، لبنان، ط1، 1999م.

شعبان، محمد، *التصوف الإسلامي: مدارسه، رموزه، أدبه*. مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2016م.

الصالحي، أنغم، التجربة الصوفية: دراسة في ضوء العلوم العصبية، *مجلة المجمع العراقي*، المجلد (4)، العدد (44)، 1997م.

ضيف، شوقي، *التطور والتجديد في الشعر الأموي*، دار المعارف، القاهرة، 1991م.

ضيف، شوقي، *تاريخ الأدب العربي: عصر الدول والإمارات: الشام*، دار المعارف للطباعة، القاهرة، 1990م، ط2.

طعيمة، صابر، *التصوف والتفلسف، الوسائل والغايات*، مكتبة مدبولي للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2005م.

الطويسي، السراج(ت: 378هـ)، *اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي (تحقيق: كامل الهنداوي)*، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2001م.

عبد الحكيم، حسان، *التصوف في الشعر العربي: نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري*، دار العرب للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2010م.

العشي، علي، التصوف والعرض الصوفي، *مجلة جرش للبحوث والدراسات، جامعة جرش*، المجلد (3)، العدد (2)، 2003م.

العشيي، سعاد، ماهية التصوف: دارسة نقدية تحليلية، *مجلة كلية التربية، جامعة عين شمس*، المجلد (1)، العدد (1)، 2015م.

علاوي، محمود، مدح النبي، *مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية* ، العدد (2) 2006م.

عيد، صلاح، *مديح الرسول في فجر الإسلام*، دار المعرفة، القاهرة، 1975م.

غراب، سعيد، *شعر المناسبات الدينية ونقد الواقع المعاصر*، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م.

فريح، عثمان، المديح النبوي في العصر المملوكي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية. المجلد (1)، العدد (6)، 1993م.

القشيري، النيسابوري(ت: 261هـ)، *الرسالة القشيرية في علم التصوف (تحقيق: معروف زريق وعلي عبد الحميد)*، دار الخبرة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1993م.

القويدري، الأخضر، *الفكر التربوي الصوفي: قراءة في التراث التربوي عند أعلام مشايخ التصوف الإسلامي*، دار نينوى للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، 2010م.

الكلاباذي، أبو بكر(ت: 384هـ)، *التعرف لمذهب أهل التصوف (تحقيق: أحمد شمس الدين)*، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج3، 1993م.

لامعي، أحمد، *المدائح النبوية في عصر المماليك البحرية*. أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، 2007م.

مبارك، زكي، *المدائح النبوية*، دار الحجة البيضاء، القاهرة، د.ت.

مخيمر، صالح، *المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري*، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1986م.

ولد البشـير، محمـد، التصـوف الإسـلامي المصـادر والمـؤثرات، *دوريـة كـان التاريخية، مؤسسة كان*، الكويت، العدد (33)، 2016م.